الوقف على المكتبات في الحضارة الإسلامية
ودروه في النهضة العلمية
(الأندلس نموذجاً)

أنور محمود زناتي

تشير القراءة المتأنية لتاريخ الحضارة الإسلامية، في عصورها المختلفة إلى أن الوقف(1) قام بدور بارز في تطوير المجتمعات الإسلامية اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وعمرانياً؛ فقد امتدت تأثيراته لتشمل معظم أوجه الحياة بجوانبها المختلفة(2).

ومن أهم المظاهر التي يتجلى فيها البعد العلمي للوقف هو "**إنشاء المكتبات**" ، وفتح أبوابها في وجه طلاب العلم، وهو ما يعكس حب المسلمين للعلم، وحرصهم على نشره بين الناس، وتقديرهم البالغ لأهله وطلابه(3) .

وفي هذه الورقة سوف نتعرض لأهمية الوقف على الكتب والمكتبات ودوره في النهضة العلمية في المغرب والأندلس وكيف ارتقت الحضارة الاسلامية

---

(1) الوقف في اللغة: هو الحبس والمنع، وهو مصدر وقف الثلاثي، يقال وقفت الدار،أي حبستها، ولايقال أوقفتها، لأنها لغة رديئة، ويقال للشيء الموقوف: وقف من باب إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول. و الوقف في الاصطلاح الشرعي فقد تعددت عبارات الفقهاء في تعريفه بناء على اختلاف آرائهم في لزومه، وتأبيده، وملكيته. عرفه الإمام أبو حنيفة بقوله: " هو حبس العين على حكم ملك الواقف، وتسجيل منفعتها على جهة من جهات البر< ، وعبارة الإمام هنا تدل على أنه يرى أن ملكية العين الموقوفة تبقى في يد الواقف. وعرفه بعض المالكية بقوله: هو جعل المالك منفعة مملوكه، ولوكان مملوكا بأجرة، أو جعل غلته كدراهم، لمستحق، بصيغة مدة مايراه المحبس". ويقسم الفقهاء الوقف إلى قسمين الأول: وقف خيري، وهو الذي يقصد به الواقف التصدق على وجوه البر، سواء أكان على أشخاص معينين كالفقراء والمساكين والعجزة، أم كان على جهة من جهات البر العامة، كالمساجد والمستشفيات والمدارس وغيرها، مما ينعكس نفعه على المجتمع ، راجع ، علي جمعة محمد، الوقف وأثره التنموي، أبحاث ندوة "نحو دور تنموي للوقف"، صفحة 91 ، وأحمد أبوزيد : نظام الوقف الإسلامي: تطوير أساليب العمل وتحليل نتائج بعض الدراسات الحديثة، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)، الرباط، 1421هـ ، 2000م .

(2) راجع محمد عبدالقادر الفقي : دور الوقف الإسلامي في التنمية ، مجلة الوعي الإسلامي ، عدد رقم 532 ، بتاريخ 03-09-2010.

(3) راجع أحمد أبوزيد : نظام الوقف الإسلامي، مرجع سابق .

في تلك المنطقة من دنيا الإسلام ارتقاءً رائعاً ، **جعلت العلامة الفرنسي** جوستاف لوبون يقول في كتابه الشهير " **حضارة العرب** " "**أنّ العرب في الأندلس قد حقّقوا تطوّرًا ماديًّا كبيراً وقفزة علميّة نوعيّة ونجحوا في جعل الأندل س تتبوّأ صدارة الدّول الأوروبية**"(4) .

الوقف على الكتب

يعد الوقف على الكتب من أفعال الخير التي يقوم بها بعض الناس تقرباً من الله تعالى فهو صدقة جارية وعلم ينتفع به . مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا منثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له"(5) .

وكانت الأوقاف المصدر الأساسي الذي ينفق منه على المكتبات العامة وخاصة مكتبت المساجد وما يلزمها ويشمل ذلك ترميم البناء ، وتزويد المكتبة بالكتب ، ودفع مرتبات الموظفين(6) .

ويشير ابن الخطيب إلى الأوقاف عند حديثه عن القرى المحيطة بغرناطة (7) ولأملاكها فيقول : "**وجملة المراجع العلمية المرتفعة فيها من في الأزمنة ، في العام بتقريب ، ومعظمها السقى الغبيط الممين العالي مايتا ألف وثنتان وستون**

---

(4) راجع جوستاف لوبون : حضارة العرب، ترجمة : عادل زعيتر، دار احياء الكتب العربية القاهرة 1956.

(5) صحيح مسلم ، كتاب الوصية ، ج11 ، ص 85 .

(6) أحمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، 1973 ، ص 178 .

(7)غَرْناطة Granada بفتح أوله وسكون ثانيه ثم ونون بعد الألف طاء مهملة.مدينة في جنوب أسبانيا عاصمة بني زيرى من ملوك الطوائف وعاصمة بنى الأحمر، استطاع الأسبان أن يوقعوا الفتنة بين خلفاء علي بن الحسن ولما تم لهم ذلك حاصروا غَرْناطة وأرسل فرديناند ملك أسبانيا رسله الى قادة غَرْناطة المسلمة العربية بالاستسلام فرفضوا فنزل جيش أسباني مكون من 25 ألف جندي واتجهوا صوب المزارع والحدائق وخربوها عن آخرها حتى لا يجد المسلمون ما يأكلونه ، ثم جهزت ملكة أسبانيا ايزبيلا جيشا آخر من 50 ألف مقاتل لقتال المسلمين في القلاع والحصون الباقية وبعد قتال مرير استسلمت المدينة وسقطت في أيدي الأسبان ،. راجع : ياقوت : معجم ، ج4 ، ص 195 .

ألف ، يضاف إلى ذلك مراجع الأملاك السلطانية، ومواضع أحباس المساجد . وسبل الخير ما ينيف على ما ذكر ، فيكون الجميع باحتياط خمسمائة ألف وستون ألف "(8) .

وقد انتشرت مكتبات الوقف في الأندلس والمغرب على مَرِّ التاريخ، وكان شعب الأندلس شعباً يقبل على العلم للعلم ذاته ، ومن ثم كان علماؤهم متقنين لفنون علمهم لأنهم يسعون إليها مختارين غير مدفوعين بهدف غير التعلم ، وكان الرجل ينفق ما عنده من مال حتى يتعلم ، ومتى عُرف بالعلم أصبح في مقام التكريم والإجلال ويشير الناس اليه بالبنان(9) . **أما العلماء** فقل من تجده متبحراً في علم واحد أو علمين ؛ بل فيهم من يعد من الفقهاء والمحدثين والفلاسفة والأدباء والمؤرخين واللغويين(10) .

مكتبات الأوقاف :

هي مكتبات خاصة وقفها أصحابها على طلاب العلم فصارت مكتبات عامة متاحة لجميع الدارسين وقد انتشرت تلك المكتبات في العالم الإسلامي فقد ارتبط ظهور المكتبات العامة وانتشارها بمبدأ وقف الكتب أي حبس الكتب على كتب معينة أو طائفة معينة من القراء ، ولا يجوز التصرف فيها بحال من الأحوال(11).

وقد كثرت مكتبات الأوقاف في الأندلس ، وكانت تتاح فيها استعارة الكتب للجميع ، ولا أدل على أدل على ذلك من الخبر الذي أثر على أبي حيان محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي (ت 745 هــ / 1344 م) " إذ كان يعيب على مشتري الكتب ، ويقول : **الله يرزقك عقلاً تعيش به ، أنا أي كتاب أردته استعرته**

(8) ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة ، ج1 ، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي ، 2001 ، ص 132 .

(9) مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ، دار العلم للملايين ، ط5 ، 1983 ، ص 71 .

(10) مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب . ج3 ، مطبعة الاستقامة ، ط1 ، 1940 ، ص 331 .

(11) شعبان عبد العزيز خليفة : الكتب والمكتبات في العصور الوسطى ، الدار المصرية اللبنانية ، 1997 ، ص 309 .

من خزائن الأوقاف وقضيت حاجتي "[12] .

وفي ذلك يقول الشاعر :

يا طالب العلم هذا بابه فتحاً

فادخل تشاهد سناه لاح شمس ضحى

واشكر مجيرك من حل مرتحل

إذا قرب الله من رماك ما نزحا[13]

من ناحية أخرى فإن اسم صاحب الأحباس قد ظهر في أكثر من ترجمة مما يشير إلى كثرة هذه الأحباس إلى درجة تحتم اعتبارها مهمة يعهد بالاشراف إليها كما هو الحال في التنظيمات الإدارية الأخرى ، فيقال عن محمد بن عمروس بن العاصي المتوفي 400 هــ / 1009 م ، أنه انصرف إلى الأندلس وشهر بالعلم وكان موثرا وتولى الأحباس بقُرْطُبَة(14).

وكانت الكتب تحبس[15] لصالح الطلاب بقصد إبعاد الفضوليين والجاهلين الذين يظهرون بمظهر العلماء، لذا يشترط أن يكون المستفيد من طلاب العلم متحلياً بسلوكهم[16] .

وتعتبر مكتبات المساجد هي النواة التي قامت على أساسها كل أنواع المكتبات الأخرى، فكانت هناك مكتبة في كل مسجد واحتوت هذه المكتبات على

---

(12) المقري : نفح الطيب ، تحقيق إحسان عباس ط 1. دار صادر بيروت 1968ج7 ، ص 376 ، 377 .
(13) ابن حجر :الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، دار الجيل ، بيروت 1993 ، ج4 ، ص 309 .
(14) محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس ، دار الفكر العربي ، ط1 ، 1982 م ، ص 278
(15) تحبيس : هو اللفظ المستخدم في الدول الاسلامية التي ساد فيها المذهب المالكي مثل الأندلس ، ويقصد به علماء المالكية : الوقف راجع ، أحمد شوقي بنين : دراسات في علم المخطوطات ، ص 43 ، 44 .
(16) يوسف العش : دور الكتب العامة وشبه العامة ، ترجمة : نزار أباظة و محمد صباغ ، درار الفكر ، بيروت ، 1991 م ، ص 194 .

كل أنواع الكتب دينية وثقافية، وقد كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المساجد ليضمنوا حفظها وإتاحتها للطلاب والدارسين[17] .

فخلال مدة إقامة المسلمين الطويلة في الأندلس وجد العديد من المكتبات الملحقة بالمساجد والتي يستخدمها الناس الذين ليس لديهم مكتبات خاصة ، فقد كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المساجد لضمان حفظها وجعلها متاحة للطلاب الدارسين وكانت هذه المكتبات تمتلئ بالكتب القيمة ذات الخط الجميل والتجليد الرائع والمصاحف وكتب الفقه وعلم الكلام [18] .

وكانت هناك **مكتبة مسجد طُلَيطِلَةُ**[19] حيث كان من المساجد الشهيرة وتعقد فيه حلقات الدروس التي تجتذب الطلاب المسلمين والنصارى على السواء حتى كان يقصدها طلاب نصارى من جميع أنحاء أوروبا بما فيها انجلتره واسكتلنده ، وقد بلغت شهرة مكتبتها من حيث هي مركز للثقافة إلى أقصى البلاد النصرانية في الشمال[20] . **ومكتبة المسجد الجامع بقُرْطُبَة**[21]، التي أَسَّسَهَا الخليفة الأموي الحكم المستنصر سنة (350هـ/ 961م) ، وقد أقام لها موظَّفِين مخصَّصِين للعناية بشئونها، وجمع فيها النسَّاخ، وعيَّن لها عددًا كبيرًا من المجلِّدِين، وقد ظلَّتْ محطَّ أنظار العلماء وطلاب العلم في الأندلس[22]، وقد أمها مختلف الطلاب المسلمين والمسيحيين لا من اسبانيا فقط ولكن من أنحاء أخرى من أوروبا وافريقيا وأسيا . **ومكتبة**

---

(17) محمد محمد أمان : الكتب الإسلامية ، مكتبة فهد الوطنية ، الرياض 1990 ، ص 59 .

(18) رضا سعيد مقبل : تاريخ المكتبات الاسلامية في الأندلس ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب جامعة المنوفية ، 2001 م ، ص 89.

(19) شعبان عبد العزيز خليفة : الكتب والمكتبات في العصور الوسطى ، مرجع سابق ، ص 349 .

(20) دي بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة وتحقيق : محمد عبد الوهادي أبو ريدة ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، 1938 م ، ص 283 .

(21) خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ، ترجمة الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، 1994 م ص 207 .

(22) ابن الأَبَّار: التكملة لكتاب الصلة ، 190/1 .

مسجد الزهراء[23] . **ومكتبة مسجد مالقة** وكان العلماء يدعمونها بما يحبسونه عليها من كتب ومنهم محمد بن لب الكناني ، الذي وقف جزءاً كبيراً من مكتبته الخاصة على الجامع الكبير بمالقة[24] وكان ابن لب " ذاكراً للعلوم القديمة معتنياً بها عاكفاً عليها وقبل وفاته حبس داره وطائفة من كتبه على الجامع الكبير ومكتبته[25].

وقام المسجد بدور المدرسة ولذلك وجد به الكثير من الكتب القيمة وإن كانت الصفة الغالبة على هذه الكتب هي كتب الفقه وعلم الكلام بينما تقل فيها كتب الشعر غير الديني وكتب الفلسفة[26] . وتذكر المستشرقة سيجريد هونكة أن الحكام أنشئوا في كل حي داراً للكتب وزودوها بمئات الألوف من الكتب وجعلوها في متناول الجميع وفي مختلف فروع المعرفة ، وكانت مجموعاتها ما بين عشرة آلاف ومائة ألف مجلد[27] . كمكتبة إِشبِيلِيّة العامة أيام الراضي بن المعتمد[28] .

وكان الإنفاق على المكتبات بصفة عامَّة من ريع الأوقاف التي تُوقَف عليها؛ حيث كانت الدولة تُخَصِّصُ لها أوقافًا مُعَيَّنَة، ويُقَدِّمُ لها بعض الأغنياء وأهل الخير

---

(23) أحمد فكري : قُرْطُبَة في العصر الإسلامي : تاريخ وحضارة ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية 1983 م ، ص 123 .

(24) مَالَقَةُ Malaga: بفتح اللام والقاف كلمة عجمية. مدينة بالأندلس عامرة من أعمال رَية سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء وألمريّة. قال الحُمَيْدي: هي على ساحل بحر المجاز المعروف بالزقاق، والقولان متقاربان وأصل وضعها قديم ثم عمرت بعد وكثر قصد المراكب والتجار إليها فتضاعفت عمارتها حتى صارت أرشذونة وغيرها من بلدان هذه الكُوَرة كالبادية لها أي الرستاق، وقد نسب إليها جماعة من أهل العلم. منهم عزيز بن محمد اللخمي المالقي وسليمان المَعافري المالقي. راجع : ياقوت : معجم ، ج 5 ، ص 43 ، أبو بكر الزهري : كتاب الجغرافية ، ص 93 .

(25) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، ص 80 .

(26) خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ، ص 188.

(27) سيجريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة فاروق بيضون ، ط7 ، دار الآفاق الجديدة بيروت ، 1982 ، ص 449 – 450 .

(28) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافيا والجغرافيون في الأندلس ، مكتبة مدبولي ، ط2 ، القاهرة 1986 ، ص 38 .

أوقافًا تساعد في الإنفاق عليها[29] .

وحظى الأندلس في مختلف عصوره بالمكتبات الوقفية والتي انتشرت في المدن الرئيسية مثل قُرْطُبَة وإشبِيلِيّة وغرناطة ، الخ ، وكان لها أكبر الأثر في نشر الثقافة الاسلامية واختفاء الأمية نهائياً من الأندلس .

وعلى وجه العموم كان بالاندلس سبعون مكتبة عامة . وكان نصيب قُرْطُبَة وحدها عشرين مكتبة فيها عشرات الآلاف من الكتب [30] . أما المقري[31] صاحب نفح الطيب[32] فيذكر أنه وجد بقرطبة وحدها إبان عزها خمس وثلاثون مكتبة منفتحة الأبواب لجميع الناس ، ولم تنفرد قرطبة وحدها بالمكتبات العامة ، فقد وصلت معلومات عن خزانة كتب عامة في إشبِيلِيّة (33) أيام **الراضي بن المعتمد (**

---

(29) محمد حسين محاسنة : أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين ، دار الكتاب الجامعي ، العين . 2001 ص161.

(30) سيجريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة فاروق بيضون ، ط7 ، دار الآفاق الجديدة بيروت ، 1982 ، ص 499 .

(31) ولد أحمد بن محمد بن احمد المقرى القرشى المكنى بأبى العباس والملقب بشهاب الدين سنة 986 بمدينة تلمسان وأصل أسرتة من قرية مقرة بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة ؛ نشا بتلمسان وطلب العلم فيها وكانت م اهم شيوخة التلمسانين عمة الشيخ سعيد المقرى. وهو واحد من أعلام القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، سطعت فضيلته العلمية في تلمسان وفاس بالمغرب العربي، وذاعت في مصر والحجاز وبلاد الشّام بالمشرق العربي إبان حكم العثمانيين الأتراك. وقد شهد له معاصروه بالإمامة والفضل، في الفقه وأصوله، وفي الحديث وعلوم القرآن، وفي علوم العربية .

(32) كان إسم الكتاب أولا " عرف الطيب، في التعريف، بالوزير ابن الخطيب " فلما ألحق به أخبار الأندلس، وأفاض فيها، اتخذ له هذا الاسم الجديد. جعل المؤلف كتابه قسمين كبيرين: يشمل الأول رحلة المؤلف، ووصف جزيرة الأندلس وما تحويه من المحاسن، وفتح المسلمين لها، ومن تعاقب عليها من الأمراء والخلفاء إلى ملوك الطوائف، ووصف قُرْطُبَة ومحاسنها، وتراجم من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق، وفيهم جماعة من النساء، وذكر مذاهب الأندلسيين وسائر أحوالهم إلى خروجها من أيدي المسلمين. ويشتمل القسم الثاني على ترجمة مفصلة لـــ " لسان الدين بن الخطيب " وأقواله، وأشعاره، ومشايخه، وغير ذلك. وفي كل باب من أبواب الكتاب يحشد "المقرى " مجموعة هائلة من المعلومات التاريخية والجغرافية والأدبية والاجتماعية، منقولة من كتب مختلفة، يعتبر أكثرها في حكم المفقود وما يجعل للكتاب قيمة لا تقدر، ويصفه في طليعة المراجع الأولى لتاريخ أسبانيا الإسلامية .

(33) إشبِيلِيّة Sevilla : إشبِيلِيّة: بالكسر ثم السكون وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة ولام وياء خفيفة . م ، وتقع مدينة إشبِيلِيّة في الأندلس ، كانت على جانب من الأهمية أيام الفينيقيين ، اتخذها الرومان عاصمة

ت 484 هـ / 1091 م) اطلع على بعض كتبها العالم الأندلسي **محمد بن مزين**[34] ، وعندما تقلص الحكم الاسلامي في غرناطة الأندلس الصغرى وجد بها سبعون مكتبة من المكتبات العامة[35] .

الدور الحضاري

وقد ساهمت تلك المكتبات بدور فعال في عملية الاتصال بين العلماء حيث عملت على إمداد المؤلفين الأندلسيين بمصادر للمعلومات كان لها تأثير على مؤلفاتهم فيما بعد . كما وفرت تلك المكتبات الكتب النادرة والموجودة في المشرق سواء توفرت هذه الكتب في مكتبات خاصة ، أو شبه عامة ، أو عامة ، حتى أتاحت للمؤلفين وإن لم يسافروا إلى خارج الأندلس أن يحصلوا على المعلومات التي يريدونها من داخل تلك المكتبات(36) .

ونتيجة لتلك الأوقاف على الكتب في الأندلس نشأت حضارة شامخة ارتكزت على مجموعة من الركائز من أبرزها توفير الكتب للعامة فانتشرت المكتبات في طول البلاد وعرضها ، وتعلق الأندلسيون بالكتب تعلقاً ملفتاً ، وانتشرت موجة حب الكتب والقراءة بين جميع طبقات المجتمع الأندلسي بلا استثناء .

كما انتشرت ظاهرة وقف الكتب في الأندلس والمغرب على مر العصور، وجرت العادة أن تسلم للخزانات العامة، لتوضع تحت تصرف طلاب العلم والعلماء. وبفضل وقف الكتب والمكتبات انتشرت الثقافة في العالم الإسلامي وشملت جميع طبقات الناس، فقد كان نظام المكتبات يشجع الناس على الإقبال

لمقاطعة بيتيكا ، وبنو بجوارها مدينة اتاليكا ، تتصل بالمحيط الأطلنطي بنهر الوادي الكبير ، فتح المسلمون إشبيلِيّة في شعبان 94 هـ / 713 م بقيادة موسى بن نصير بعد حصار دام شهر، وأقام عليها عيسى بن عبد الله الطويل وهو أول ولاتها من المسلمين ، راجع : ياقوت : معجم ، ج1 ، ص 195 .

(34) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ، ص 38 .

(35) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ، ج3 ، دار الهلال ، 1968 ، ص 230 .

(36) شرين السيد عبده : الاتصال الوثائقي في الأندلس ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ص 158 .

عليها لما يجدونه من العناية والنفقة السخية والإقامة المريحة، فينكبون على القراءة والنسخ والمطالعة، لايزعجهم هَمٌّ، ولايشغلهم خوف، كل هذا بفضل الخير العميم الذي فاض على المجتمع الإسلامي من مؤسسة الوقف العامرة (37) .

وانتشرت مهنة الوراقة وكثر الوراقين والنساخ(38) وانتشرت المكتبات العامة في المدن للأفراد غير القادرين على شراء الكتب أو الذين لم يتيسر لهم الحصول عليها ، وساعد الوقف على توفير كم كبير من الكتب وسهل الاطلاع عليها ، مما ساعد على تطور الحركة العلمية بوجود هذا الكم الهائل من الكتب وفي كافة المجالات أدبية كانت أم علمية .

كما وفرت لهم أيضاً الكتب النادرة والموجودة في المشرق حتى أتاحت لطلاب العلم نسخاً منها وإن لم يسافروا إلى خارج الأندلس وأن يحصلوا على المعلومات التي يريدونها من داخل تلك المكتبات ولعل من أبرز الأمثلة في ذلك الشأن أننا وجدنا شيخ مؤرخي الأندلس وحامل لواء التاريخ في الأندلس وهو ابن حَيَّان القرطبي(39) حيث نال ابن حَيَّان حظاً وافراً من ثقافة عصره ، وخير شاهد على ذلك ما وصفه به تلميذه أبي على الغَسّانيّ قائلاً : " **كان قوى المعرفة ،**

---

(37) راجع أحمد أبوزيد : نظام الوقف الإسلامي ، مرجع سابق .

(38) ريبييرا : التربية الإسلامية في الأندلس ، ص 125 .

(39) ابن حَيَّان : هو حيان بن خلف بن حُسَين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب بن حيان مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، كنيته أبو مروان ، ذكرابن بَشْكُوَال فى كتابه الصلة أنه قرأ أسمه وولاءه هذا بخطه ، ولد فى قُرْطُبَة سنة (377 هــ ـــ 988م) وتوفى بها يوم الأحد 28 ربيع الأول سنة 469 هــ (30 أكتوبر سنة 1076 م) ، وما وصل إلينا من أخباره قليلاً لا يتناسب مع هذه المكانة العالية التى اعترف بها لابن حَيَّان أهل عصره ، ولم يترجم لنفسه كما فعل بعض المؤرخين قبله وبعده.أنظر في ابن حَيَّان وترجمته : ابن بَشْكُوَال ، الصلة ، ج1 ، ص 153 ، ترجمة رقم 345 ، ابن بَسَّام ، الذخيرة 573/1 ، الحُمَيِّدي ، جذوة المقتبس 200 رقم 397 ، الضَّبِّيّ ، بغية المتلمس 275 رقم 679 ، الزركلي ، الأعلام ، 328/2 ، كحالة ، معجم المؤلفين ، 88/4. وقد كتب عنه ملشور انطونية رسالة بعنوان Ibn Hayyan de Cordoba y sa Historia de la Espana musulmana ضمن دفاتر إسبانيا، المجلد الرابع، بونس آيرس 1946 ص 5 – 72)؛ وغرسيه غومس بحث صغير عنه في مجلة الأندلس (المجلد 11، 1946) .

مستبحراً في الآداب"[40] ، ويقول ابن خلدون في مقدمته عن ثقافته أنه : " **قَيَّد شوارد عصره واستوعب أخبار أفقه وقطره"** [41] ، وقد درس القرآن الكريم ، والتفسير ، والحديث الشريف وعلومه ، والفقه ، واللغة العربية وآدابها .

كما كان ابن حَيَّان على اطلاع وثيق بتاريخ الأندلس الإسلامية بل وتاريخ الممالك النصرانية أيضاً ، مما يرجح أنه كان يعرف عجمية الأندلس وأن " ما أورده من أخبار عن إسبانيا النصرانية[42] ينم عن معرفته الدقيقة بكل أحوالهما وأنساب حكامها ، أكثر من مؤرخي عصره من المسيحيين [43]. والعجيب أن ابن حَيَّان لم يغادر قرطبة ولم يرتحل خارجها حتى في أوقات الفتن واضطراب الأوضاع هناك مما يؤكد دور تلك المكتبات في التحصيل العلمي وفي كافة المجالات[44] . وللمزيد من الأمثلة يمكن الاطلاع على كتاب " تاريخ علماء الأندلس "[45]

وكانت محبة الكتب ثمرة من ثمرات الوقف على الكتب في الأندلس وأصبح

---

(40) ابن بَشْكُوَال : الصلة ، ج1، ص 247.

(41) ابن خلدون: المقدمة ، ص 14.

(42) لفظة إسبانيا (Hispania) أقدم اسم أطلق على شبه الجزيرة الأيبرية، وبعضهم يرده إلى أصل فينيقي معناه " ساحل الأرانب البرية " ثم قيل إن ذلك نسبة إلى اشبان (Sphan) وتحرفت الكلمة إلى أصبهان، ومن صيغ الاسم أيضاً (Hispalia) وعرب إلى إشبِيلِيّة. راجع ، المقري : نفح ، تحقيق : احسان عباس ، دار صادر، بيروت ، حاشية رقم 2 ، ج1 ، ص 134 .

(43) عبد المحسن رمضان : الحروب الصليبية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 2001 م ، ص 40.

(44) للمزيد راجع ، أنور محمود زناتي : ابن حَيَّان القرطبي مؤرخاً ، دار الآفاق العربية ، 2011 ، ص 54 – 64 .

(45) يعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر فى دراسة كثير من جوانب التاريخ العلمي والثقافى لإسبانيا الإسلامية عصر الأُمَويين ، وذلك لما يحتويه من حقائق غنية ومتنوعة . وقد تضمن قسما كبيرا من المعلومات السائدة عن المؤرخين الإسبان ـــ العرب وكتاب السير ، وعن أساتذتهم وتلاميذهم ومؤلفاتهم وطابع وخصوصيات نشاطهم العلمى . ترك " تأريخ العلماء " لابن الفَرَضى أثرا كبيرا على المؤرخين العرب فى إسبانية الذين جاؤوا من بعده بدءا من ابن حَيَّان وانتهاء بالمقرى وأصبح المبدأ المتبع فيه لترتيب المواد هجائيا ـــ وزمنيا نموذجا اقتدى به مؤلفه معاجم التراجم اللاحقين ، واعتمد هذا المؤلف فى غالبيته على المصادر المكتوبة من مؤلفات التراجم لمن سبقه من الكتاب ، راجع ، تاريخ علماء الأندلس ، ج1 ، ص 8 .

الكتاب وسيلة من وسائل التربية والتعليم هناك وكثرة التأيف حتى من بين الطبقات المتوسطة .

كما ساهم الوقف على الكتب بطبيعة الحال في تنشيط حركة التأليف في الأندلس حيث تفرغ عدد كبير من العلماء في مختلف المجالات للتأليف نتيجة توفر المكتبات الوقفية ووجود عدد لا بأس به في كل مدينة أندلسية .

كما كانت تلك المكتبات تفتح أبواب المعرفة أمام الجميع ، وأتاحت لهم فرصة الاطلاع على كتب وعلوم جديدة لم تكن متاحة لعدد كبير من الناس ولعبت دوراً في تثقيف الناس وجعلت من بينهم المفكرين والعلماء والأدباء وأمدتهم بما يحتاجون اليه في تأليف كتبهم .

ولم تكن تلك المكتبات مجرد خزائن كتب ، وإنما كانت مؤسسات تعليمية وتربوية أيضاً ، فقد كانت أشبه ما تكون بالمدارس والجامعات ، وبالتالي أسهمت نصيب وافر في العملية التعليمية فكانت مكاناً لعقد حلقات الدرس والمحاورات والمناقشات بين العلماء وأهل العلم ، مما يتيح الفرصة للطلاب لعرض الأسئلة والاستفسارات وتلقي الإجابة عنها .

وقد أشادت جل المصادر التي أرخت للأندلس بدور الحكام الهام في رعاية الحركة العلمية وشغفهم الشديد بالعلم فهناك **عبد الرحمن الداخل (138 – 172 هـ / 755 – 788 م)** قد شكل في عهده قاعدة قوية للحضارة فكان أعظم حكام الأندلس مكانة في البلاغة والأدب[(46)] وسار على نهجه أمراء وخلفاء وملوك الأندلس من أمثال **هشام الرضى (172 – 180 هـ / 788 – 986 م)** ، الذي يعتبر فترة حكمه فترة حاسمة في مجال التعليم في الأندلس ، فقد كان مهتماً اهتماما مباشرا بالعلم والفقهاء مانحا اياهم كل ما يستطيع من حماية وتأييد [(47)] ، وكان له ديوان أرزاق ، لتوزيع عطاياه ، حتى أنه " لم يقتل أحد من جنده في شئ

---

(46) ابن سعيد : البيان المغرب : ج2 ، 58 .

(47) محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس ، دار الفكر العربي ، ط1 ، 1982 م ، ص 81 .

من ثغوره أو جيوشه ، إلا وألحق ولده في ديوان أرزاقه "[48]) .

ومن بعده جاء الحكم الربضي الذي عمل بعد القضاء على ثورة الربض [49] الشهيرة على تشجيع العلم والعلماء حتى الدولة بعد وفاته في عصرها الذهبي علما وتعليما وثقافة وهو **عصر عبد الرحمن الأوسط (206 هـ / 238 هـ)** والذي يمكن أن نطلق عليه "**عصر النجوم اللامعة** " ويكفي أن نورد بعض الأسماء اللامعة لنتبين مدى ما وصل اليه هذا العصر من ازدهار ورقي . فظهر في ذلك العصر الفقيه **يحيي بن يحيي الليثي**[50] المعروف باسم " **عاقل الأندلس** " ، الحكيم **عباس بن فرناس** ، والموسيقي المغني **زِرْياب**[51] . وأسس عبد الرحمن الأوسط مكتبة ضخمة في قُرْطُبَة " **وكان نصيراً للعلوم والآداب ، وأحاط بنفسه بنخبة من العلماء وأدار عليهم الأرزاق والمنح** "[52]) كما قصده التجار بكتب الحكمة

---

(48) مجهول : أخبار مجموعة : ص 120 .

(49) الرَّبَض : بالتحريك وآخره ضاد معجمة ، راجع : السمعاني : الأنساب ، ج 1 ، ص 458 ، وراجع تفاصيل الثورة في المقتبس لابن حيان القرطبي (السفر الثاني ، تحقيق مكي) ، ص 142

(50) يحيي بن يحيي اللَّيْثي : هو أبو محمد يحيي بن يحيي بن كثير بن وسلاس المصمودي الأصل ، الليثي الولاء رحل إلى المشرق ، فسمع من الإمام مالك موطأه وتفقه به ، ولما عاد إلى الأندلس تصدى لنشر المذهب المالكي فعلا صيته واشتهر ذكره ، راجع ، المقتبس (تحقيق مكي) لجة احياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، ص 180 ، تاريخ علماء الأندلس ، ج2 ، ص 898 – 900 .

(51) زِرْياب 161 – 238 هـ/ 777 – 852م : (معناه الطائر الأسود الجميل الصوت) وزِرْياب هو : أبو الحسن علي بن افع قدم الأندلس 207 هـ وتوفي سنة 238 هـ ، وقد اشتُهر باسم زِرْياب تشبيهًا له بذلك الطائر الأسود الغِرِّيد لسواد لونه وفصاحته وجمال صوته. ولد في بلاد الرافدين، وكان بارعاً في الموسيقى، وعُرف عنه أنه كان يصنع عوده بنفسه، وكان ذلك سببًا في تقريب الخليفة هارون الرشيد له عندما قدمه إسحاق الموصلي لمجلسه ، درس زِرْياب الموسيقى على إبراهيم الموصلي ثم على ابنه إسحاق الموصلي وقد جدد الكثير في لموسيقى الأندلسية وفن الغناء وأدخل الكثير من العادات إلى المجتمع الأندلسي ، و من إسهامات زِرْياب في مجال الموسيقى أنه أضاف الوتر الخامس إلى آلة العود، وهو أول من استخدم الريش في الضرب على العود، وهو الذي ابتدع القوالب التي بُنيت عليها الموشحات الجديدة بالأندلس ، وقد أحدث ثورة فى عالم الأزياء ، ومراسم تناول الطعام ، وطريقة تصفيف الشعر للرجال والنساء ، وجعل لكل فصل من السنة ملابسه الخاصة به ، طبقاً لمكانه من الحر أو البرد ، فالملابس البيضاء للصيف للمزيد راجع : ابن حيان : المقتبس (تحقيق مكي : الشطر الأول) ، ص 307 – 335 ، نفح : 3 / 122 – 133 .

(52) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ج2 ، دار الجيل 2001 م ص 240 .

التي أخذت من قصور العباسيين في فتنة الأمين والمأمون التي عاصرت عهده([53]).

لذلك لا غرابة إن انتشرت المكتبات والكتب في جميع أنحاء البلاد وكثر عشاقها وكثر التأليف والمؤلفون ، ولاسيما أنه وجد حكام شجعوا العلم وهم أنفسهم كانوا مثلاً عالياً في حب الكتب وجمعها والاهتمام بها ؛ فقد اشتهر **عبد الرحمن الناصر (300 هـ - 350 هـ)** بحبه للكتب حتى بلغت شهرته في ذلك ، الامبراطور البيزنطي أرمانيوس الذي رأى أغلى هدية يمكن أن يقدمها اليه، هي كتاب " ديسقورس " ([54]) .

ولن نجد مثلا آخر أوروع من الحكم المستنصر ([55]) (350 هـ / 366 هـ) الذى يحتل مكانة خاصة بين الحكام المثقفين ووصفوه بأنه كان " **جماعاً للكتب** " وكان يرسل المبعوثين الى القاهرة ودمشق وبغداد والمدن الأخرى التى تهتم بالكتب ، وذلك لشراء الكتب بأثمان عالية " حتى غصت بها بيوته ، وضاقت عنها خزائنه " (56) حتى استطاع أن يجمع نحو 400 ألف مجلد

---

(53) مصطفى ابراهيم عبد الحميد : الحياة العلمية في قُرْطُبَة على عهد الناصر والمستنصر ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، القاهرة ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، ص 45 .

(54) خوليان ريبيرا : اهتمام المسلمين في الأندلس بالكتب ، ترجمة : جمال محرز ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ص 86 .

(55) الحكم المستنصر (350 – 366 هـ / 961 – 976 م) : هو أبو العباس المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمن بن محمد الناصر الأُمَوي المرواني ، بويع بعد وفاة أبيه سنة خمسين وثلاثمائة ، وكان حسن السيرة جامعاً للعلم مكرماً للأفاضل ، ذا نهمة مفرطة في العلم ، عاكفاً على المطالعة ، جمع من الكتب مالم يجمعه أحد من الملوك ، كما اشتهر بأنه ألف كتباً في التاريخ ، توفي في شهر صفر سنة ست وستين وثلاثمائة . (الحُمَيْدي : جذوة المقتبس ص13 ، الضَّبِيّ : بغية الملتمس ، ص 18 – 21 ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ج8 ص269 –271 ، ابن عذاري : البيان المُغْرِب : ج3 ، ص 233 – 235 ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، تحقيق بروفنسال ، ط2 ، بيروت ، 1956 ، ص 41 – 43 ، المقري : نفح الطيب ، ج1 ، ص 382 – 396 ، ابن خلدون : العبر ج4 ص144 ، ، أزهار الرياض ج2 ص286–294 ، عبد القادر ذنون طه : نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس ص13) .

(56) ابن الأَبَّار : الحُلة السِّيَراء ، ج1 ، ص 201 .

لمكتبته(57) بل ويروى أنه سجل عليها ملاحظات غاية فى الدقة ، كما أنشأ داراً لنسخ الكتب[58] وأودعها بمدينة الزهراء[59] .

وأكد ابن حَيَّان على أن الحكم المستنصر قد أمر ب " **تحبيس**(60) **حوانيت السراجين بسوق قُرْطُبَة على المعلمين الذين قد اتخذهم لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين بقُرْطُبَة**" (61) وهذا يعني أن الدولة قد تبنت تخصيص مصروفات للمدارس(62) وقد بلغ عدد المدارس 27 مدرسة مجانية ، منها ثلاث مدارس ازدهرت في المساجد ، و24 مدرسة في أحياء قُرْطُبَة المختلفة(63) .

ألا هكذا تبنى المدارس للعلم

وتبقى عهود المجد ثابتة الرسم

ويقصد وجد الله بالعمل الرضا

---

(57) الكسندر ستيبتشفيتش : تاريخ الكتاب ، القسم الأول ، ترجمة محمد الأرناؤوط ، سلسلة عالم المعرفة 1993 العدد 169 ، ص245 .

(58) أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي ، ص420 .

(59) الزهراء Medina Zahra: ممدود تأنيث الأزهر وهو الأبيض المشرق والمؤنثة زهراءُ والأزهر النير ومنه سمي القمر الأزهر ، تقع شمال غرب مدينة قُرْطُبَة ، وعلى بعد حوالي ستة أميال ، وقد شرع الخليفة عبدالرحمن الناصر في بنائها في شهر المحرم سنة 325 هـ ؛ حيث عهد إلى ابنه الحكم بالإشراف على البناء ، وقد استمر البناء إلى عهد الحكم ، لكن الزهراء لم تعمر طويلا ؛ حيث إنه لما تغلب المنصور ابن أبي عامر على السلطة نقل قاعدة الحكم منها إلى الزاهرة وقد قام البربر بتخريبها أثناء الفتنة البربرية . (ابن غالب : فرحة الأنفس ص31 ــ 34 ، الحِمْيَري : الروض المعطار ص 8 2ــ 32 ، المقري : نفح الطيب ج2 ص65 ــ 67 ، السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المسلمين ص 407 ــ 411) .

(60) تحبيس : من الحبس بمعنى المنع ، ويقصد به إمساك العين ومنع تملكها بأي سبب من أسباب التمليك راجع البهوتي : كشاف القناع 489/2 .

(61) ابن حَيَّان القرطبي : المقتبس (تحقيق الحجي) ، ص207 .

(62) يوسف أحمد يوسف : علم التاريخ في الأندلس ، ط1 ، مؤسسة حمادة للنشر ، الأردن ، 2002 م ، ص 25

(63) Imamudin , Apolitical history of muslim Spain Dacca,1969, p. 176

وتجني ثمار العز من شجر العزم(64)

ويذكر ابن حزم في جمهرته نقلاً عن تليد الخصي أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكُتب أربع وأربعون فهرسة ، وفي كل فهرسة خمسون ورقة ، ليس فيها إلا ذِكْر أسماء الدواوين لا غير(65) .

وقد استخدم الحكم عددا كبيرا من النساخ في منزله يتولون نسخ الكتب النادرة ، بل أقام صناعة متكاملة في داره ، تضم الناسخين والمجلدين والضابطين[66] .

وتضخمت مكتبة قُرْطُبَة بصورة كبيرة ، وقام كل من الأمراء والمواطنين بتقليد الحكام في ذلك مما أفسح المجال لظهور مكتبات عديدة ومتنوعة في الأندلس(67) .

حتى بلغت الأندلس درجة رفيعة من الحضارة [68] ويكفي لبيان ذلك أن نشير إلى تقدم أهل الأندلس في العلوم المختلفة من أدب وفنون وفلك ورياضة وطب وكيمياء ، الخ[69] حتى لقد أصبح اسم قُرْطُبَة في حد ذاته يقترن بالعلم والعلماء.

وفي ذلك يقول الشاعر :

بأربع فاقت الأمصار قُرْطُبَة

منهن قنطرة الوادي وجامعها

---

(64) المقري : نفح الطيب ، ج9 ، ص 186 .

(65) للمزيد ، راجع ، خوليان ريبيرا : التربية الاسلامية في الأندلس ، ط2 ، ترجمة الطاهر مكي ، 1994 م ص 157 ، ومحمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم ، مرجع سابق .

(66) محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس، دار الفكر العربي ، ط1 ، 1982 م، ص 138 .

(67) نفسه ، ص 113.

(68) حُسَين مؤنس: قُرْطُبَة ، درة مدن أوروبا في العصور الوسطى . مجلة العربي، عدد 95 ، أكتوبر 1966 ص 85.

(69) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، 1998 ، ص 317.

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة

والعلم أعظم شئ وهو رابعها (70)

وقال ابن سفر المريني :

وليس في غيرها بالعيش منتفع

ولا تقوم بحق الأنس صهباء

وكيف لا يذهب الأبصار رونقها

وكل روض بها في الوشى صنعاء

أنهارها فضة ، والمسك تربتها

والخز روضتها والدر حصباء

وللهواء بها لطف يرق به

من لا يرق وتبدو منه أهواء (71)

حتى في عصر **ملوك الطوائف** (422 – 484 هـ) فالعجيب أنه وعلى النقيض من الوضع السياسي ؛ لم تكن الثقافة الأندلسية يوماً أشد إشعاعاً ، وأقوى خصوبة كما كانت عليه في تلك الفترة ففي الغالب تكون الأزمة "تحدياً" يوجب " الاستجابة " – حسب مفهوم " **أرنولد توينبي**" – ، وغالباً ما تناط النخبة المفكرة بريادة الاستجابة على الصعيد المعرفي (72) . ويجمع الدارسون على ازدهار الحركة الثقافية في عصر ملوك الطوائف (73) . ولم تقتصر نوعيات الكتب على العلوم النظرية فقط بل كانت في العلوم عملية (74) كالفيزياء، وعلم العقاقير،

---

(70) راجع ، نفح ، ج1 ،ص 153 ، ودائرة معارف الشعب : عدد رقم 61 ، مطابع الشعب ، 1959 ، ص 17 .

(71) نقلاً عن : محمود أحمد الحفني: زِرْياب . الدار المصرية للتأليف والترجمة ، 1974 م ، ص 96.

(72) راجع ، محمود اسماعيل : إشكالية المنهج في دراسة التراث ، رؤية للنشر والتوزيع ، ط1 ،القاهرة ، 2004 ، ص 39.

(73) محمود إسماعيل ، و آمال محمد حسن : في تاريخ المغرب والأندلس ، القاهرة ، بدون ، ص 157 .

(74) مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ، دار العلم للملايين ، ط5 ، 1983 ، ص 71 .

والزراعة (علم الفلاحة) والذي أبدعوا فيه وصنفوا التصاميم المشهورة، مسجلين ما توصلت إليه تجاربهم في النباتات والتربة[75] .

وقد كان كل ملك من ملوك الطوائف يحاول أن يجعل من مملكته ملتقى للشعراء والأدباء والمغنّين، ونشطت بذلك تجارة الرقيق، واجتهد النخّاسون في تعليم الجواري الرّوميات الغناء، وضروباً أخرى من الثقافة لترتفع أجورهنّ. وكثر الطلب على الجواري المغنيات فقد دفع هذيل بن رزين صاحب السهلة في جارية ابن الكتاني ثلاثة آلاف دينار(76).

وكان كثير من الأهالي يحبسون كثيراً من أراضيهم وبيوتهم أو بعض موارد دخلهم على المساجد مثلما فعل **عبد الملك بن حبيب السلمي** (238/ 852 م) الذي كان له أرض وزيتون بقرية بيرة وهي إحدى قرى غرناطة وكان بها مسجد قراءته وحبس جميع ذلك على مسجد قُرْطُبَة(77) ومكتبته بطبيعة الحال .

وأمثلة وقف الكتب في الأندلس كثيرة منها أن العالم أبو الوليد الباجي (ت 474 / 1081 م) أوقف كل كتبه على مسجد ببيرة عند أبي الحكم عبد الرحمن بن الحاج اللخمي (ت 601 هـ / 1204 م) خطيب المسجد القائم بالاشراف على مكتبة المسجد (78) .

وهناك العالم ابن مروان الباجي الذي وقف كل كتبه على مكتبة المسجد الجامع بإشبيلِيّة . وكذلك وقف محمد بن محمد بن لب الكناني طائفة من كتبه على

---

(75) راجع ، ابن بَصَّال : كتاب الفلاحة ، ص11– 36 .

(76) ابن عذاري ، البيان المغرب ، مرجع سابق ، ص 308.

(77) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج3 ، ص 548 .

(78) شرين السيد عبده : الاتصال الوثائقي في الأندلس ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ص 157.

الجامع الكبير بمالقة(79) . كما كان الوقف الطريقة التي حصلت بها الجامعات العظيمة مثل جامعتي قرطبة وطُلَيطِلَةُ(80) على مكتبتهما(81) .

وكانت الكتب الموقوفة منهلاً صافياً لطلاب العلم ، وكان بعض العلماء يحبسون كتبهم عند أشخاص يثقون فيهم لضمان الحفاظ عليها وعدم تبديدها ، وحتى يستفيد منها طلبة العلم بعد وفاة حابسها ، ومنهم هارون بن سالم (ت 238 هـ / 852 م) الذي وقف كتبه عند **أحمد بن خالد**(82) ، وقاسم بن سعدان بن عبد الوارث (ت 347 هـ / 957 م) الذي حبس كتبه عند محمد بن أبي دليم(83) . وقام الفقيه محمد بن عيسى بن اسحق التجيبي (ت 485 هـ / 1092 م) بحبس كتبه على طلاب العلم بالعدوة (84) . ووقف أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي (ت 488 هـ / 1095 م) كتبه على أهل العلم فانتفع بها الناس(85) كما قام محمد بن علي بن ياسر الأنصاري الجياني (ت 563 هـ / 1168 م) بوقف كتبه على أصحاب الحديث (86) ومحمد بن محمد بن

---

(79) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج3 ، ص 80 – 81 .

(80) طُلَيطِلَةُ : كانت عاصمة الأندلس قبل دخول طار ، وهي : مدينة قديمة في أسبانيا تقع في وسط شبه جزيرة أيبريا على مسافة 91 ك جنوبي غربي مدريد. كانت مزدهرة أيام الرومان وتسمى (توليتم (toletum ثم صارت حاضرة الدولة القُوطِيَّة. فتحها المسلمون بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير سنة 92 هـ (713 م) وجعلوها قاعدة الثغر الأدنى للدولة الإسلامية وحينما سقطت دولة الخلافة الأُمَوية وانقسمت الأندلس إلى طوائف كانت طُلَيطِلَةُ مستقلة يحكمها بنو ذي النون سنة 427 هـ (1035م) وهم من زعماء البربر وسقطت طُلَيطِلَةُ في يد ملك (قَشْتَالَة) (الفونسو السادس) في المحرم سنة 487 هـ 1085 م وينتسب إليها كثير من العلماء منهم عيسى بن دينار الغافقي الطليطلي ومحمد بن عبدالله بن عيشون الطليطلي وصاعد الأندلسي صاحب كتاب طبقات الأمم (راجع ، ياقوت : معجم البلدان (4 / 39) ، أبو بكر الزهري : كتاب الجغرافية ، ص 83 ، ويوسف بني ياسين : بلدان الأندلس ، ص 391) .

(81) محمد محمد أمان : الكتب الإسلامية ، ص 59 .

(82) القاضي عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، مجلد 2 ، ج3 ، ص 48 .

(83) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج1 ، ص 367 .

(84) ابن بشكوال : الصلة ، ص 558 .

(85) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، مج 8 ، ص 518 ، المقري : نفح الطيب .

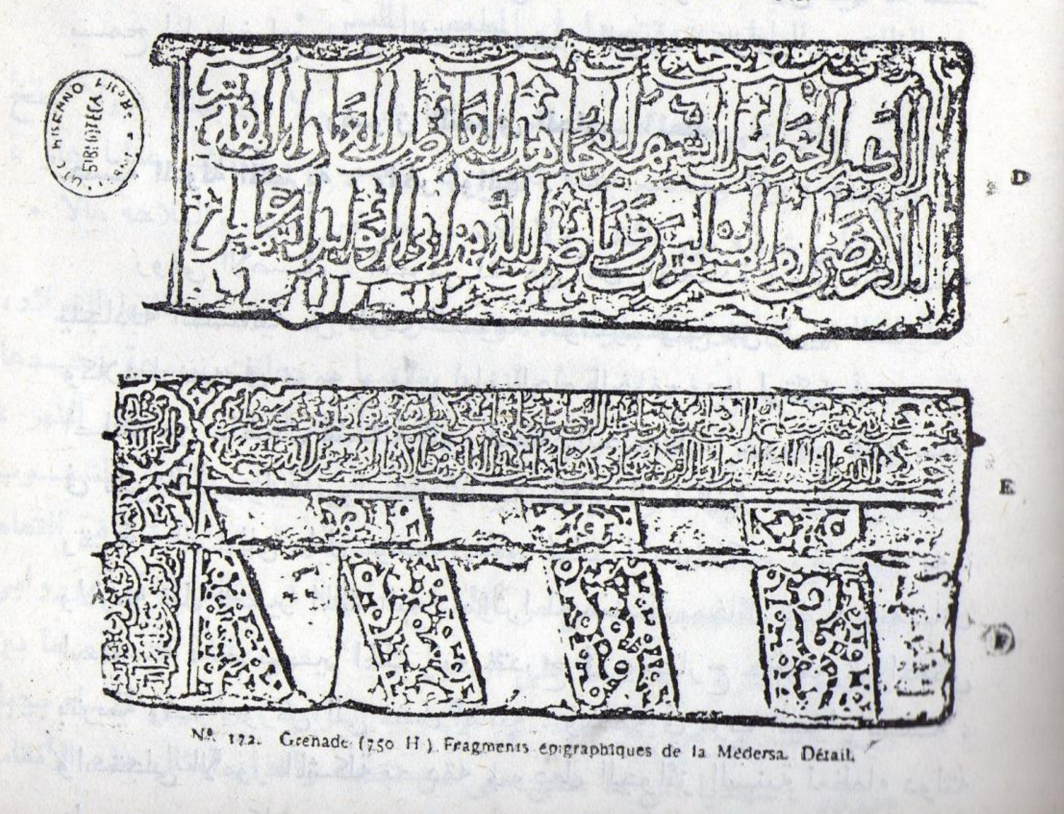
(86) المقري : نفح الطيب : ج2 ، ص 157 .

محارب الصريحي المالقي (ت 750 هـ / 1349 م) فقد عهد بريع كبير على طلبة العلم وحبس عليهم كتبه(87) .

مرسوم بالمدرسة النصرية بغرناطة على ما نقله ليفى بروفينسال ، والقطعة الموجودة فى متحف الآثار بغرناطة

أمر ببناء هذه الدار للعلم جعلها الله استقامة ونوراً وأدامها فى علوم الدين على الأيام أمير المسلمين أظله الله بعونه (؟) العلىّ الشهير الكريم السعيد الطاهر الرفيع الهمام السلطان المؤيد أبو الحجاج يوسف ابن العلىّ الكريم || الكبير الخطير الشهير المجاهد الفاضل العادل المقدس الأرضى أمير المسلمين وناصر الدين أبى الوليد إسماعيل || بن فرج بن نصر كافى الله فى الإسلام صنائعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية وتمّ [ذلك] فى شهر محرّم عام خمسين وسبعمائة

A ordonné la construction de cette demeure (consacrée) à la science — qu'Allāh en fasse un établissement de droiture et de lumière et qu'Il la fasse durer au long des jours pour les sciences de la religion! — l'émir des Musulmans — qu'Allāh le protège par son aide!(?) — l'élevé, le célèbre, le noble, le fortuné, le pur, le haut, le héros, le sultan assisté par Dieu, ABU 'L-ḤAĠĠĀĠ YŪSUF, fils de l'élevé, du noble, du grand, du considérable, du célèbre, du guerrier pour la foi, de l'excellent, du juste, du sanctifié, du très agréé, l'émir des Musulmans et le défenseur de la religion, ABU 'L-WALĪD ISMĀ'ĪL IBN FARAĠ B. NAṢR. Qu'Allāh récompense pour l'Islām ses actions vertueuses et accepte favorablement ses hauts faits de guerre sainte! Et cela fut terminé dans le mois de muḥarram de l'an 750 (22 mars—20 avril 1349).



Nº 172. Grenade (750 H). Fragments epigraphiques de la Medersa. Détail.

نقلاً عن محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس ، دار الفكر العربي ، ط1 ، 1982 م ، ص 389

---

(87) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج3 ، ص 79 .

ومما ساعد على انتشار الكتب وازدهار الحياة العلمية انتشار صناعة الوراقة في الأندلس حيث تولى **الوراقون**(88) **Librerias** نسخ ما يظهر من مؤلفات، كما اشتهرت الأندلس بمصانع الورق، وتميزت بهذا الإنتاج بعض المدن مثل غرناطة وبَلَنْسِية(89) وطُلَيطِلَةُ، وشَاطِبَةُ[90]، وقد حاز مصنع شَاطِبَةُ شهرة واسعة في صناعة الورق الجيد(91) .

ونتيجة للوقف على الكتب كثر النساخ ولم يقتصر هذا الأمر على الرجال بل تجاوزه إلى النساء فقد حكى ابن فياض أنه كان يوجد بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة ينسخن المصاحف بالخط الكوفي(92) .

وكانت المدارس المجانية كثيرة ومكتباتها مجانية بطبيعة الحال ، وكان ينفق عليها من ربع الحوانيت . والعقارات والأراضي امثل لتى أوقفها الحكم الثانى ، وآخرون غيره . وأسهم الشعب بدوره ، يجمع الهبات ، ويدعم المدار س، بعيداً عن رقابة الدولة وتدخلها فى النظم أو المناهج ، ما دامت لا تستهدف نشر أفكار ضارة بأمن المجتمع وهدوئ . وقد تحقق فى قُرْطُبَة . المثل الأعلى الذى نطمح إليه : أن يكون التعليم الابتدائى مجاناً وإجبارياً مجاناً لأن العاجزين لم يكونوا يحرمون منه لعجزهم ، وإجبارياً بضغط من المجتمع نفسه ، دون حاجة إلى أمر يصدر أو قانون يشرع ، لأن التجار أصحاب الحرف والمصا نع يرفضون أن

---

(88) الوراق بفتح الواو وتشديد الراء في آخرها القاف ، هو اسم لمن يكتب المصاحف وكتب الحديث وغيرها ، وقد يقال لمن يبيع الورق وهو الكاغد ، راجع السمعاني : الأنساب ، ج5 ، دار الخيان ، بيروت ، 1988 ، ص 584 .

(89) بلنسية València في شرق الأندلس على البحر المتوسط ، أبو بكر الزهري : كتاب الجغرافية ، ص 102 .

(90) شَاطِبَةُ Jativa: مدينة في شرقي الأندلس تقع في مقاطعة بَلَنْسِية وفي حوض نهر البيضاء شرقي إسبانيا. أسسها الإبيريون وعرفت المدينة في الفترة الإسلامية ازدهارا كبيرا وعُرفت في جميع أوروبا كمهد صناعة الورق راجع (ابو الفدا : تقويم البلدان ، تحقيق ماك كوكين دي سلان ، باريس ، ص 168 ، العذري ترصيع الأخبار ، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، مدريد ، 1965 م ، ص 20 .

(91) عبد الرحمن الحجي: الكتب والمكتبات في الأندلس ، مجلة كلية الدراسات الاسلامية العدد الرابع، بغداد 1972 ، ص361 .

(92) المراكشي : المعجب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الاستقامة ، القاهرة 1949 ، ص 372 .

يقبلوا فى حوانيتهم عمالاً لا يعرفون القراءة والكتابة حتى ولو كنت مهنهم لا تحتاج إليها. فإذا بلغ الطفل سن الحلم إنتقل إلى مصنع أو متجر ليعمل ، أو يواصل تعليمه إذا سمحت له ظروفه بذلك . وفيها يحضر الطالب المواد التى تعجبه ، على الاستاذ الذى يطمئن إليه ، ويقرأ فى الكتاب الذى يراه نافعاً ومفيداً، ويتعمق فى درسه بالقدر الذى يسمح له به ذكاؤه ورغبته وإمكاناته ، ومن الصعوبة تحديد متى يبدأ التعليم في المرحلة الأعلى ومتى ينتهى، وليس من الممكن كذلك تحديد المادة ، أو المواد، التى يبدأ طلاب التعليم بدراستها: القرآن ، أو الرياضيات ، أو الطب ، أو اللغة ، أو الأدب فقد كان الطلاب أحيانا يجمعون بين أكثر من مادة فى الوقت نفسه ،ولكن يمكن القول أن الطلاب كانوا يبدأون دراسة النحو والتعمق فيه ليعينهم على فهم بقية المواد الأخرى ، وتليه دراسة المواد الدينية ، من فقه وحديث وتفسير وأصول(93) .

وقد وجدنا كل من يوقف مدرسة يجعل لها خزانة كتب وقفية ، لها نصيب من الموارد المالية المخصصة لتسيير عجلة الوقف بشكل عام ، ثم كان أخيار فضلاء من الناس علماء وأثرياء وطلاب علم يضيفون إلى خزانة الكتب عن طريق شراء كتب يوقفونها ، أو تضمين وصاياهم ما يشير إلى وقف ما يخصهم من كتب على مدرسة محددة ، ويمكن للمرء أن يجزم أن مدرسة واحدة في بقاع العالم الاسلامي القديم ما كانت تخلو من مكتبة تابعة لها بغض النظر عن حجمها وموقعها(94) .

وكان الحكام ومن في حكمهم من أولي الأمر وعلية القوم والوجهاء من الناس يرسلون نسخاً من الكتب المهمة إلى عدة مدارس لتكون وقفاً عليها ، وعادة يكتب الحجة الوقفية أحد الأدباء المعروفين ببلاغة قلمه من ذلك ما أشار اليه

---

(93) الطاهر احمد مكي : دراسات عن ابن حزم . ط 4 ، دار المعارف 1993 ، ص 45 .

(94) يحيي محمود الساعاتي : الوقف وبنية المكتبة العربية ، استنباط للموروث الثقافي ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية ، الرياض 1988 ، ص 77 .

المقري بشأن وقف كتاب **الاحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب** [95] على المدرسة اليوسفية(96) .

ومن المكتبات المدرسية مدرسة مدينة سبتة وقد أنشأها أبو الحسن علي بن محمد بن علي الشاري (ت 649 هـ / 1251 م) وقد جعل مدرسته العلمية بسبتة مقراً للدراسة وحبس مكتبته التي تجمع بين رفوفها الكثير من ذخائر الكتب ونفائس المخطوطات على أهل العلم ؛ فقد كان الشاري جماعاً للكتب والدفاتر منافساً فيها ، مغالياً في أثمانها ، ربما أعمل الرحلة في التماسها حتى اقتنى منها بالابتياع والانتساخ كل علق نفيس ، ما لم يكن عند أحد من أبناء عصره ، ثم انتقى منها جملة وافرة فحبسها في مدرسته التي أحدثها بقرب باب القصر أحد أبواب بحر سبتة ، وعين لها من خيار أملاكه جيد رباعه صالحاً سالكاً في ذلك طريقة أهل المشرق(97) .

وهناك مكتبة المدرسة النصرية ، التي أنشأها السلطان أبو الحجاج يوسف الأول (733 هـ / 755 هـ) واشتهر زكرها في ظل بني الأحمر أو بني نصر سلاطين غرناطة ورأسها الطلاب من الأندلس والمغرب وأوروبا ، وكانت تقع تجاه الكنيسة العظمى التي أنشئت على موقع المسجد الجامع(98) .

---

(95) الإحاطة في أخبار غرناطة : موسوعة شاملة لكل ما يتعلق بهذه المدينة الكتاب قسمان، الأول: يشمل نشأة غرناطة، وجغرافيتها، وخططها، وخواصها، ومحاسنها، وذكر عادات أهلها ومعايشهم، وأزيائهم، وجندهم، وسلاحهم، وكثيراً من أحوالهم الاجتماعية لعهده. ويقع هذا القسم في نحو 40 صفحة. والثاني: يشمل سائر التراجم: فيه من ملوك عصره، سواء في الأندلس أو المغرب، أو أسبانيا النصرانية بدقة وإضافة، ويورد طائفة من تراجم الأعلام، الذين عاشوا في غرناطة، أو وفدوا عليها في مختلف عصور الدولة الإسلامية، مرتبين على حروف المعجم، وقسم ترجمة كل رجال إلى أبواب في تاريخ حياته ومناقبه وسائر أحواله، وختم الكتاب بترجمة لنفسه. الكتاب صدر عن مكتبة الخانجي تحقيق محمد عبد الله عنان، لقاهرة 1974 .

(96) المقري ، نفح ، ج7 ، ص 102.

(97) ابن الزبير : صلة الصلة ، ص 149 – 152 .

(98) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج3 ، ص 35 – 36 .

وقد ألحق بتلك المدرسة مكتبة قيمة ، وتعهد سلاطين غرناطة هذه المكتبة فأمدوها بالكتب ؛ ومن الكتب التي حبست على هذه المكتبة نسخة من كتاب الإحاطة لابن الخطيب حيث أمر سلطان غرناطة أبو عبد الله محمد بن نصر (820 – 831 هـ) بوقفه على المدرسة عام 829 هـ – 1426 م) وكتب صيغة هذه الوقفية الفقيه الغرناطي ابن عاصم(99) . وكذلك كتاب أبو عبد الله بن الخطيب في شرح كتاب الارشادات لأبي الحسن بن سينا في المنطق والحكمة ، وكذلك كتاب بن معط وهو السفر الثاني من كافيته في علم النحو بشرحها ، كان من الكتب المحبسة على مدرسة غرناطة(100) .

وقد وقف الحاجب(101) النصري بأمر السلطان الأوقاف الجليلة على المدرسة " حتى غدت المدرسة نسيجة وحدها بهجة ورصداً وظرفاً وفخامة " (102) . ويبدوا أن أوقاف المدرسة كانت كثيرة حتى استدعى الأمر أن يعين لها مسئول مخصوص هو محمد بن قاسم بن أحمد الأنصاري (ت بعد 770 هـ / 1368 م) الذي قال عنه ابن الخطيب " هو الآن مستوطناً حضرة غرناطة تالياً للأعشار القرآنية بين يدي السلطان مرفع الجانب معزز الجراية بولايته أحباس المدرسة "(103) .

وكان هناك عدد من الفنادق المجاورة للمدرسة والتي كانت محبسة على بعض مساجد ومدارس غرناطة وكتباتها بطبيعة الحال(104)

---

(99) المقري : نفح الطيب ، ج7 ، ص 102 – 105 .

(100) أحمد محمد الطوخي : مظاهر الحضارة في مملكة غرناطة ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع ، الاسكندرية 1997 ، ص 302 .

(101) الحاجب : في أول الأمر كان الحاجب في الدولة الأُمَوية بالأندلس يقوم بالوساطة بين الخليفة ووزرائه، ثم أخذت سلطة الحاجب في الاتساع حتى أصبح أرفع الوزراء شأنا، وصار يسمى بذي الوزارتين، وصار يشرف على الشئون المدنية والعسكرية. ، راجع (حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، الدار الفنية ، القاهرة ، 1989 م ، ص 251 .

(102) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج1 ، ص 506 – 513 .

(103) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج3 ، ص 196 – 199 .

(104) محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس ، ص 397.

نص الوقفية :

وكان الواقف يحرص على كتابة نص الوقفية على الكتاب نفسه ، ولدينا صيغ لكيفية وقف كتاب أو مصحف في المسجد أو المكتبة لصالح الطلبة ، ففي حالة وقف كتاب يقول " كتاب الجامع الصحيح للبخاري أو مسلم أو موطأ الكذا والكذا .... لتعار لطلبة العلم للنسخ والمقابلة والدرس " وفي المصحف يقول" مصحف جامع القرآن ، صفة كذا ، وخطة كذا ، بحليته وغلافه ، وإن كان ربعة ذكرتها ، كذلك تذكر في ..... الخ "[105] .

شروط الواقف :

كان ينتفع بتلك الكتب المحبوسة حسب شروط الواقف ، وقد احتفظ لنا ابن العطار ببعض الشروط فيقول الواقف " ليستعيرها ثقات طلبة العلم للنسخ والمقابلة والدراسة " و : تعار لمن يريد أن يقرأ فيه[106]

أوجه الصرف

وتشمل أوجه الصرف شراء الكتب وصيانة المبنى والتجهيزات والأثاث وكذلك مرتبات العاملين حيث كانوا يحصلون على أجورهم من الأوقاف المحبوسة مما يعني أن تلك المرتبات لم تكن ثابتة ، بل كان المرتب يتبع في ارتفاعه وانخفاضه ما يستطيع المشرف أن يحصل عليه من ايراد الوقف(107) .

وكان بعض العاملين بالمكتبات يتقاضون مرتبات مرتفعة وأعطيات كثيرة فهذا هو أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الخزرجي الذي كان مشرفاً على

---

(105) رضا سعيد مقبل : تاريخ المكتبات الاسلامية في الأندلس ، مرجع سابق ، ص 132.

(106) محمد عبد الوهاب خلاف : تاريخ القضاء في الأندلس ، المؤسسة العربية الحديثة ، 1992 ، ص 601.

(107) أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ، ص 178 .

الخزانة العلمية "خزانة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن " وكانت عندهم من الخطط الجليلة التي لا يعين لها إلا علية أهل العلم وأكابرهم ، وكانت مواهب ابن عبد المؤمن جزيلة وأعطياته مترادفة وصلاته متوالية ، وربما وصلة في المرة الواحدة بخمسمائة دينار "(108) .

ويزودنا ابن غالب بمعلومات عن مرتبات العاملين بالمسجد الجامع بقرطبة والذي كان من بينهم من يقوم بالاشراف على المكتبة يقول : " وكان يخدمه من الخطباء والأئمة والمؤدبين مائة رجل وعشرات لهم من الدنانير على اختلاف منازلهم ، ثمانمائة دينار في الشهر مكافأة على رتبتهم وتعطيل أشغالهم حاشا الديار لسكناهم"(109) .

في الختام

تعتبر المكتبات بصفة عامة ومكتبات الوقف بصفة خاصة من أهم دعائم الحضارة ، فهي تقوم بحفظ وصيانة كنوز المعرفة وتنظيمها وإتاحتها للجميع ، كما أنها تعطي صورة صادقة لمدى اهتمام الشعب الأندلسي بالفكر والعلم والعلماء. والوقف على المكتبات ، يعكس حب المسلمين للعلم، وحرصهم على نشره بين الناس، وتقديرهم البالغ لأهله وطلابه. وبفضل هذا الحب الذي غرسه الإسلام في أهله أقبل الناس على وقف الكتب وإنشاء المكتبات العامة والخاصة، وإن وقف المكتبات والكتب كان من مفاخر الحضارة الإسلامية ومآثرها التي فاقت بها سائر الحضارات(110).

---

(108) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الأول ، ق 1 ، ص 228 – 229 .

(109) ابن غالب : فرحة الأنفس ، تحقيق : لطفي عبد البديع ، معهد المخطوطات العربية ، 1955 ، ص 299 .

(110) للمزيد من التفاصيل راجع أحمد أبوزيد : نظام الوقف الإسلامي، مرجع سابق .